مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 12 عدد: 2، يونيو 2023
ص: 183 - 192 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

تجليات صورة المرأة وتمثلاتها في رحلة ابن جبير الأندلسي

The Image of Women and their Representation in the Journey of Ibn Jubayr Andalusi

رضوان غربي*
Radouan Gharbi
مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها
جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)
University of Mohamed Khider, Biskra (Algeria)
radouan.gharbi@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/02	تاريخ القبول: 2022/12/08	تاريخ النشر: 2023/06/02

ملخص البحث

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الوقوف عن مفهوم أدب الرحلات، وكذا التطرق لأقسام الرحلات، وأهميتها العلمية والأدبية، مع التركيز على تمثلات صورة المرأة في رحلة ابن جبير الأندلسي، التي قام بها إلى بلاد المشرق في القرن السادس الهجري، ولما كانت المرأة ركن ركينا في المجتمع، فإن الرحالة حين رصد أحوال المجتمعات وعاين أخبارهم ووصف عاداتهم وتقاليدهم، فإنه لم يغفل عن رصد صورة المرأة وما تميز به من خصوصية في اللباس والتدين والأدوار الوظيفية التي تقوم بها للحفاظ على النسيج الاجتماعي، لذلك جاءت الدراسة للكشف عن صورة المرأة في مختلف مجالات الحياة من خلال استنطاق رحلة ابن جبير، وتم التوصل في نهاية هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها تنوع صورة المرأة واختلاف ملامحها من مجتمع لآخر وارتباط ذلك بطبيعة التكوين الثقافي والاجتماعي الذي شكل صورة المرأة، فبرزت صورة المرأة المتدينة العفيفة، والمرأة الجارية، والمرأة المستنكرة غير المألوفة، والمرأة الجميلة.

الكلمات المفتاح: أدب الرحلة، الصورة، المرأة، ابن جبير.

Abstract :

This paper aims to stand on the concept of travel literature, as well as to address the sections of trips, and their scientific and literary importance, with a focus on the manifestations of the image of women in the journey of Ibn Jubayr, which he took to the Levant in the sixth century, and since women were a cornerstone in society, When the traveler monitored the conditions of societies and examined their news and described their customs and traditions, he did not neglect to monitor the image of women and what is characterized by privacy in dress, religiosity and the functional roles that they play to preserve the social fabric, so the study came to reveal the image of women in various areas of life through An investigation of Ibn Jubayr's journey, and at the end of this study a set of

* رضوان غربي: radouan.gharbi@univ-biskra.dz

results was reached, the most important of which is the diversity of the image of women and the difference in their features from one society to another, and this is related to the nature of the cultural and social formation that shaped the image of women. And the beautiful one.

Keywords: Travel literature, portrait, woman, Ibn Jubayr.

1-مقدمة

يعد أدب الرحلات من الفنون الأدبية النثرية التي تحمل في طياتها عناصر فنية شكلت لها خصوصية ميزتها عن الأجناس الأدبية الأخرى، وبخاصة أن هذا اللون من الكتابة يفسح المجال للرحالة لاكتشاف طبائع الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم وطرق تفكيرهم، حيث ينقلها في قالب فني مشوق يؤثر في المتلقي، ويثير عنده الرغبة في معايشة الأحداث والمشاهد، فضلا عن ذلك فهو يساعد على خلق جسور التواصل والتعارف بين الأمم والشعوب، كما أنه يعد بمثابة نافذة يطل من خلالها الإنسان على مختلف الظواهر الثقافية والاجتماعية السائدة في مختلف الأقطار والبقاع التي ينزل بها الرحالة ويعاين أحوالها.

ولما كانت المرأة من العناصر الفاعلة في المجتمعات، حظيت بعناية فائقة من طرف الرحالة، ولعل ذلك مرده للأدوار الوظيفية التي تقوم بها داخل الإطار الاجتماعي، لذلك تميزت نصوص الرحلات بحضور الأنثى في شتى صورها وأشكالها المتعددة التي فرضتها طبيعة المجتمعات وتكوينها الثقافي الذي يحدد وظيفة المرأة ويمنحها مساحة من الحرية للتعبير عن هواجسها وأفكارها، ولذلك اختلفت صورة المرأة من مجتمع لآخر، وتعد رحلة ابن جبير الأندلسي من الرحلات المتميزة في القرن السادس الهجري إلى بلاد المشرق، حيث رصد فيها مختلف الظواهر الثقافية والمشاهد الاجتماعية التي أبصرها وشدت انتباهه في البلدان والأماكن التي نزل بها، وكانت المرأة من ضمن اهتمامات الرحالة، حيث سعى لرصد صورتها المتباينة من مجتمع لآخر، وبناء على هذا الأساس جاءت إشكالية البحث على النحو الآتي: ماذا نقصد بأدب الرحلات؟ وأين تكمن قيمته العلمية والأدبية؟ وكيف تشكلت صورة المرأة في رحلة ابن جبير؟ وما طبيعة الصورة التي رسمها ابن جبير وما موقفه منها؟.

وقد اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي الذي يتلاءم مع طبيعة الدراسة.

2-مفهوم أدب الرحلات:

2-1-لغة: حظيت مادة "رحل" في المعاجم العربية بشرح مستفيض، فقد جاء في لسان العرب "الترحيل أو الرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا رحل..."[1].

ووردت الرحلة بمعنى السير يقال" إنه لذو رحلة إلى الملوك ورحله حكاه اللحياني أي ارتحال، والرحلة بالكسر الارتحال للمسير"[2].

يتضح لنا من خلال هذا التعريف اللغوي أن الرحلة تأخذ معنى الحركة والانتقال من مكان لآخر مع تحديد الوجهة، أو المقصد الذي يسعى الرحالة لبلوغه.

2-2-اصطلاحا:

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، حيث يقول الباحث "عبد النبي ذاكر" في وصفه لأدب الرحلة" إنه شكل أدبي هجين يمتاز بتعدد أوجهه وتظهراته إلى حد أنه يمكن القول أنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماط خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه شكل مائع ومرن إلى حد كبير"[3].

ومن هنا يتبين لنا أن أدب الرحلة جنس أدبي يتسع لاحتواء مختلف المضامين الفكرية والفنية، كما ينفتح ليحتضن مختلف الأشكال التعبيرية التي تساهم في إثراء مضامينه وتعميق دلالاته.

وفي مفهوم آخر ورد أن أدب الرحلات هو "ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفا له، ويسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"[4].

وقد سعى الباحث "عمر بن قينة" إلى تحديد مفهوم لأدب الرحلة بقوله هي" لون أدبي ذو طابع قصصي يحمل فائدة للمؤرخ والباحث الجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، وهي ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة الظروف والأوضاع واكتشاف المعالم والأقطار ووصفها والحكم عليها، فهي إذن وصف لكل ما انطبع من ذلك وسواه في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية وغيرها"[5].

بناء على ما سبق ذكره يمكن القول أن أدب الرحلات جنس أدبي قائم بذاته، يتميز عن غيره من الأجناس الأدبية الأخرى باعتماده على الوصف والمشاهدة اللذين يعتبران النواة الأساسية لمسار الرحلة، كما أنه يعكس ميول الرحالة وفكره وانطباعاته ومزاجه.

3- مكونات الخطاب الرحلي:

يشتمل الخطاب الرحلي على مجموعة من الركائز الأساسية التي تمثل جوهره الفني والفكري ومن أهم هذه الركائز نجد:

3-1-السرد: وهو من العناصر الهامة التي تقوم عليها الرحلة، فأي كتابة رحلية لا يمكن أن تستغني عنه ما دامت تنقل للمتلقي أحداثا وأفعالا قام بها الرحالة ابتداء من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها "ولعل جسد الرحلة يتمثل في السرد الذي يعطي للرحلة شرعيتها الأدبية"[6].

فالرحالة يلجأ إلى السرد كوسيلة فنية في نقل الوقائع والأحداث والمشاهد التي شدت انتباهه، ولعل الملفت للانتباه أن السرد في النص الرحلي سرد واقعي قائم علة الملاحظة والمعاينة المباشرة، وليس من نسج الخيال والأساطير "لأن العملية السردية هي تحويل الأحداث والوقائع من تجربة معيشة إلى سرد مكتوب من تحريفات وإضافات وإهمال وتقريرية"[7].

وعليه فإن السرد الرحلي قائم على المشاهدة والملاحظة المباشرة التي تخلو من الغرابة والتعقيد.

2-3- الوصف: لاشك أن الوصف يمثل عنصرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه في النص الرحلي، كونه يضفي على الرحلة صفة الأدبية، إذ لابد أن الرحالة في كتابته يسخر الوصف في رصد صورة الأمكنة والأشخاص والأشياء" فالسارد في الرحلة يصف ليسرد ويسرد ليصف"[8].

وعلى هذا الأساس فإن الرحالة ينبغي أن يمتلك القدرة الفنية والموهبة الأدبية لكسر حاجز الجمود في النص الرحلي، وإتباع أسلوب سردي يعتمد على الوصف المشوق المؤثر على ذهن المتلقي ووجدانه وتحفيزه للتفاعل مع مختلف المشاهد والأحداث.

4-أقسام أدب الرحلة: ينقسم أدب الرحلات إلى قسمين:

4-1-الرحلة الواقعية: وتتمثل في تلك الرحلة التي قام بها الرحالة "ضمن إطار مكاني وزماني معينين" واصفا بدقة كل ما وقعت عليه عينه من المناظر والمشاهد التي رآها أثناء رحلته، يضاف إلى ذلك أن الرحلة الواقعية تجعل الرحالة ينقل كل ما شد انتباهه وأثار إعجابه من العادات والتقاليد والسلوكات والتصرفات التي شاهدها من خلال رحلته إلى مختلف البلدان التي ارتحل إليها بأسلوب يجمع فيه بين الجمالية الأدبية والجانب الذاتي"[9].

4-2- الرحلة الخيالية: وفيها هذا النوع من الرحلة يعتمد الرحالة على خياله لرسم الأمكنة والأزمنة المتخيلة، حيث "يقوم بها الإنسان في مناطق غير حقيقية وتصور مغامرات خارقة بقصد التسلية وإثارة الخيال"[10].

5-القيمة العلمية والأدبية لأدب الرحلات:

5-1- القيمة العلمية:

يمثل أدب الرحلة وثيقة معرفية تشمل مختلف الاختصاصات العلمية التاريخية، الجغرافية، الاجتماعية، الاقتصادية وغيرها، حيث أن هذه الشمولية العلمية ساهمت بشكل كبير في إشباع حاجات الدراسين وتلبية رغباتهم للاستفادة من مختلف المعارف والمعلومات التي يحتاجونها بكل اطمئنان، ففي مجال التاريخ على سبيل المثال "تقدم الرحلات معلومات لم يقدمها لنا العلم المختص في هذا المجال، فهي تنقل ذلك الاختصاص بواقعية وبكيفية حية، فإذا كان التاريخ يعمل على استقصاء حياة البلدان وتاريخها بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والثقافية، فإن الرحلات أعطت كل ذلك بعده المناسب...فقامت الرحلات بإخراج التاريخ عن حدوده الضيقة"[11].

كما أبرزت الرحلات الجانب الجغرافي لمختلف البلدان ومسالكها" فالرحالة يدون مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض خدمة لعلم الجغرافيا ، فهو عندما يصف الممالك والبلدان والمدن يتحدث كذلك عن الطبيعة والمناخ وظاهرة توزيع السكان..، فهو يعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسيا لمن يتناول هذه الموضوعات بالدراسة... وذلك أن الرحلات سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة في المجتمعات والبلدان"[12]، وعليه يمكن القول أن أدب الرحلة سجل حافل بمختلف العلوم والمعارف التي تتسع لتشمل المادة التاريخية والخرائط الجغرافية لمختلف البلدان التي نزل بها.

5-2-القيمة الأدبية :

لاريب أن أدب الرحلة" يحفل بكثير من الأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية ، وجمال اللفظ وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على ما يستعين به أحيانا من أسلوب قصصي سلس ومشوق"[13].

كما نجد "شوقي ضيف" يدافع عن أدب الرحلة، حيث يكشف عن خصائصه الفنية التي يتميز بها، فيقول" وقد يلجأ بعض الرحالين في كتابة رحلته إلى اللهو والتكلف في تزويق العبارة والعبث اللفظي إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه، ولا يعني هذا أن أسلوب أدب الرحلة قد تخلص من كل الصفات والعيوب الأسلوبية الأخرى، فهو يعتمد على السجع أحيانا وعلى الصرامة العلمية أحيانا، ومع ذلك يوجد فيه من الطراوة والاخضرار واللين، وهذا الأدب يهتم اهتماما كبيرا بتنوعه وثروة مادته"[14].

يتبين لنا من خلال هذا المقطع أن الرحلة فن أدبي بامتياز كونه يشتمل على مكونات فنية، تجعله يندرج ضمن حقل الأجناس الأدبية الأخرى، ولعل أهم الخصائص الجمالية التي تميزه نجد: المحسنات البديعية كالسجع والطباق، ومختلف الألوان البيانية كالتشبيه والاستعارة وغيرها، إضافة إلى دقة الوصف وبراعة التصوير وجمالية التعبير التي تتمظهر من خلال السرد القصصي المشوق الذي يضفي جمالية وتشويقا يؤثر في وجدان المتلقي.

6- التعريف بابن جبير:

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، ولد ببلنسية سنة 540هـ-1145م، تلقى تعليمه على يد العديد من العلماء في الأندلس والمغرب"[15]، اشتهر بثقافته الواسعة في العلوم الشرعية والنقلية وبالأخص الأدب الذي برع فيه، إذ يذكر المؤرخون أنه كان أديبا وشاعرا مجيدا، ونظرا لشهرته الكبيرة استدعاه أمير غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن وعينه كاتبا في ديوانه لمدة سنتين"[16].

7- صورة المرأة وتمثلاتها في رحلة ابن جبير:

لاشك أن المرأة تعد عنصرا فاعلا في المجتمع، نظرا لما تقوم به من وظائف مختلفة وخدمات جليلة، ومن هذا المنطلق شكلت المرأة عنصرا رئيسا في بناء نصوص الرحلات، فكان الحضور الأنثوي حضورا مؤثرا على وجوه متنوعة، تجسدت من خلال الأدوار التي تمثلها والأوضاع الاجتماعية المختلفة التي تعيشها، ولأهمية المرأة في الخطاب الرحلي سعى الرحالة لتقديم صورة المرأة في رحلاتهم بمختلف أشكالها، فالصورة" تشير إلى ما ينتجه أديب أو رحالة عن بلد زاره وتفاعل معه، وكتب عنه، ويقصد بذلك الصورة التي يقدمها الكاتب للرحالة، وقد لا تكون مطابقة للواقع، أو قد تكون أحيانا نابعة من التصورات السائدة"[17].

ولما كانت المرأة ركنا أساسيا في المجتمعات، خصص لها الرحالة مساحة واسعة في نصوص رحلاتهم رغبة منهم في رصد صورتها، وذلك بالاعتماد على سرد أفعالها ووصف أحوالها، وبخاصة في المناسبات الاجتماعية التي تبرز فيها خصوصية المرأة وتباين صورتها من مجتمع لآخر، ولعل أول الصور التي رصدها ابن جبير في رحلته نجد:

7-1- المرأة المتنكرة غير المألوفة:

لقد تشكلت صورة المرأة المتنكرة غير المألوفة في المجتمعات العربية الإسلامية والمجتمعات غير الإسلامية في وعي الرحالة، حيث كانت المشاهد السلبية والظواهر السلوكية المتصلة بالمرأة تتعارض مع مبادئ الرحالة وقيمه الدينية التي نشأ عليها فلم يتقبلها وأنكرها إنكار شديدا[18].

ومن الشواهد الدالة على هذه الصورة في نص الرحلة، ما ذكره ابن جبير في سياق حديثه عن أهل عيذاب، حيث يقول: "ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يستترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يستترون، وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"[19].

يستغرب ابن جبير من هذه الصورة القاتمة التي تظهر بها المرأة في هذا المجتمع، فهي مخالفة لصورة المرأة المسلمة المتشبعة بالمبادئ والقيم الإسلامية، لذلك فهو يستنكر هذه الصورة البشعة التي تبرز بها المرأة مخالفة الفطرة الإنسانية.

كما أورد ابن جبير في رحلته بعض المشاهد والسلوكات التي لم يألفها في بلاد المغرب، لا سيما حين يتعلق الأمر بالنسوة في دمشق عند قدوم الحاج المشقي مع أصحابه الحجاج، حيث عبر عن هذا التصرف الغريب بقولهم "خرج الناس الجم الغفير نساء ورجالا يصافحونهم ويتمسحون بهم، وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها فأخبرني من أبصر كثيرا من النساء يتلقين الحجاج ويناولنهم الخبز، فإذا عض الحاج منه اختطفنه من أيديهم وتبادرن لأكله، تبركا بأكل الحاج له، ودفعن له عوضا عنه دراهم، وغير ذلك من الأمور العجيبة ضد ما اعتدنا في المغرب من ذلك"[20].

والواضح أن ابن جبير ينكر هذا التصرف الغريب الذي صدر من قبل النساء في موسم الحج، ناعتا إياه بالأمر العجيب الذي لم يعهد في بلاد المغرب.

7-2- المرأة الجارية:

يورد ابن جبير هذه الصورة في سياق حديثه عن جواري الملك النصراني "غليام"، حيث ينعتهن بأجمل الصفات فيقول: "ومن أعجب ما حدثنا به أميره المذكور، وهو يحي بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك يقول" أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة ...ولهن في فعل الخير أمور عجيبة.."[21].

مما يلفت الانتباه في هذا القول أن جواري الملك "غليام" كن نساء صالحات ذوات أفعال خير كثيرة، محافظات على شعائرهن الدينية الإسلامية، إضافة إلى ذلك أنهن يبذلن قصارى جهودهن لنشر الإسلام وتعاليمه بين النساء النصرانيات.

7-3- المرأة والجمال:

رغم اختلاف معايير جمال المرأة بين المجتمعات التي زراها الرحالة العرب، كان الرحالة العرب في جميع الأحوال ولوعين بالمرأة على اختلاف أصولها، وتنوع ثقافتها، شديدي الإحساس بجمالها[22].

ولقد أشار ابن جبير في رحلته إلى جمال المرأة، وأدوات الزينة التي تستخدمها لإظهار مفاتنها، ويتجلى ذلك في حديثه عن زينة خاتون أم الأمير عز الدين صاحب الموصل أثناء استقبالها عند عودتها من الحج، حيث يقول: "ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها، وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصبوغة أهلة ودنانير، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب...ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره ، وكان مشهدا أبهت الأبصار وأحدث الاعتبار.."[23].

يقدم لنا ابن جبير في هذا المقطع مشهدا وصفيا تظهر فيه هذه المرأة في صورة تبهت الأبصار، وتسر الأنظار، حيث يظهر الرحالة اهتمامه بمرتكزات الزينة عند المرأة كالذهب والفضة، فضلا عن ذلك لم يغفل عن ذكر حالة الثراء الفاحش الذي تتمتع به هذه الخاتون، الأمر الذي أتاح لها ارتداء أجمل الثياب، والتزين بمختلف أصناف الحلي، ومثل هذه المشاهد تعكس حرص الرحالة على رصد صورة المرأة المشرقية.

ومن الصور الجميلة التي وقعت عليها عين الرحالة اقتداء النصرانيات وتأثرهن بزي المسلمات في مدينة "صقيلة" التي نزل بها في يوم الميلاد النبوي، ويتجلى ذلك في قوله: "وزي النصرانيات في هذه المدينة، زي نساء المسلمين ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور، وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائعة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة.."[24].

يشير ابن جبير إلى تأثر النصرانيات بلباس المسلمات وأزيائهن، ويظهر ذلك من خلال ارتداء النقب، واستعمال وسائل الزينة كالحرير والذهب، مما يدل دلالة واضحة أن اللباس يمثل علامة جمالية تجسد هوية المرأة وتحدد خصوصيتها في المجتمعات.

7-4-المرأة المتدينة:

لم يغفل ابن جبير في رحلته عن ذكر بعض ملامح المرأة الصالحة العفيفة المتدينة في مختلف البلدان التي نزل بها، حيث تنوعت ملامح هذه الصورة من مكان لآخر حسب طبيعة المجتمع، وتكوينه الثقافي ومذهبه الديني، ومن الصور المشرقة التي نالت إعجاب الرحالة ما أورده عن حال النساء في يومهن المخصص للطواف في البيت الحرام، حيث يصف المشهد بقوله" ..أفرد البيت للنساء خاصة، فاجتمعن من كل صوب، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم، ولم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال، وتسلسل النساء بعضهن ببعض، وتشابكن حتى تواقعن، فمن صائحة ومكبرة ومعولة ومهللة، وانفسحن في الطواف والحجر وكان ذلك اليوم عندهن الأكبر، ويومهن الأزهر الأشهر، نفعهن الله به وجعله خالصا لوجهه"[25].

يصور ابن جبير في هذا القول الحرص الشديد للنساء في مكة المكرمة، واجتهادهن لنيل الأجر والمغفرة من خلال أداء مناسك العمرة في شهر رجب، ويظهر ذلك جليا في اليوم المخصص لطواف النساء، وفي هذا المشهد التعبدي تبرز العاطفة الدينية لابن جبير، حيث نجده يتعاطف مع النساء اللواتي يؤدين مناسك العمرة في هذا اليوم الذي وصفه باليوم الأزهر لكثرة الطاعة فيه، ويختم قوله بدعاء الله عز وجل أن ينفعهن بأعمالهن ويتقبلها خالصة لوجهه الكريم.

كما رصد الرحالة صورة إيجابية للخواتين اللائي عرفن بالصلاح والتقوى، حيث وصف الخاتون ابنة الأمير "عز الدين إسماعيل" حاكم الموصل أثناء إقامتها في الديار المقدسة" قد قامت بعدد من أعمال البر التي تتقرب بها إلى الله عز وجل، فقد أنفقت مالا عظيما في سقاية الحجاج، وعينت لذلك نحو ثلاثين ناضحة ومثلها للزاد، وقدمت الكساء للحجاج..."[26]، يبدي ابن جبير إعجابه بهذه الصورة المثالية للمرأة الصالحة العفيفة التي تقوم بأعمال البر والخير، رغبة في نيل الثواب العظيم، ولعل هذه الأفعال الحميدة والأخلاق الفاضلة التي تتحلى بها ابنة أمير الموصلي في خدمة الحجاج والمعتمرين، تدل دلالة واضحة على تشبعها بالثقافة الدينية.

ولم تقتصر مظاهر صلاح المرأة على ممارسة الشعائر الدينية فحسب، بل تجاوزت ذلك إلى القيام بعدد من أعمال البر والصدقات مثل بناء الأوقاف والإنفاق عليها، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما ذكره ابن جبير من مشاهد الأوقاف المتنوعة التي تكاد تستغرق مدينة دمشق، وقد نبه إلى علمه أن هناك كثيرا من تلك المساجد والمدارس والأوقاف من صنع النساء الخواتين ، حيث يقول: "ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار، من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة.."[27].

تتجلى لنا صورة مشرقة للمرأة العفيفة الصالحة التي فقهت غايتها في الوجود، فقامت بدورها الفعال من خلال المبادرة بالإنفاق والسعي لترك أثر إيجابي ينفع الأمة الإسلامية.

8-خاتمة:

بناء على ما سبق ذكره في هذه الدراسة تم التوصل إلى مجموعة من النتائج أهمها:

-أبانت رحلة ابن جبير عن مدى تأثير التكوين الثقافي والاجتماعي في تنوع صورة المرأة واختلاف خصوصيتها من مجتمع لآخر.

- إشادة الرحالة بالدور الفعال الذي تقوم المرأة في بعض المجتمعات، ومشاركتها القوية في الحفاظ على تماسك النسيج الاجتماعي.

- اعتمد الرحالة في رصد صورة المرأة على موروثه الديني وتكوينه الثقافي القائم في الغالب على المرجعية الإسلامية.

-لم يكتف الرحالة برصد صورة النساء وملابسهن وجمالهن فحسب، بل كان يعبر عن مشاعره وأحاسيسه، ويدلي بآرائه وانطباعاته تجاه كل ما عاينه وأثر على وجدانه.

- أوضحت الدراسة تباين صورة المرأة بين صورة مألوفة مقبولة تتفق مع قيم الرحالة ومبادئه، وصورة أخرى مستنكرة غير مألوفة منافية لمبادئ الرحالة، نظرا لاختلاف ثقافة المجتمعات.

-سعى الرحالة إلى إبراز صورة المرأة النصرانية في بلاد المشرق وتأثرها بالزي الإسلامي لاسيما في المناسبات كالأعراس والأعياد.

هوامش :

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، لبنان، د.ط، ج11، 1994، ص 276.
[2]- الزبيدي، تاج لعروس، المحقق مجموعة من المحققين، دار الهداية، الرياض، د.ط، 2010، ص61.
[3]- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص49.
[4]-انجيل بطرس، الرحلات في الأدب الانجليزي، مجلة الهلال، مصر،العدد07، 1975، ص52.
[5]- عمر قينة، في الأدب الجزائري الحديث، تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 1995، ص07.
[6]- عيسى بخيتي، جماليات المشهد في الأدب الجزائري الحديث، مذكرة ماجستير، جامعة تلمسان، إشراف محمد مرتاض، 2011، ص 77.
[7]- المرجع نفسه، 78.
[8]- المرجع نفسه، ص78.
[9]- محمد مرتاض وتار، توظيف الرواية في التراث العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا د.ط، 2002، ص23.
[10]- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان،بيروت،ط1، 1994، ص176.
[11]- نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، وزارة الثقافة، ط1، 2008، ص52.
[12]- المرجع نفسه، ص52.
[13]- سيد حامد النساج، منشورات كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، مصر ، د.ط، د.ت، ص08.
[14]- حسيني محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص09.
[15]- ينظر، ابن جبير محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص05.
[16]- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999، ص 82.
[17]- ينظر، نجيب مليكة، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين18و19م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع والإعلان، أبوظبي، د.ط، 2014م، ص59.
[18]-ينظر، المرجع نفسه، ص ص 18، 19.
[19]-ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 49.
[20]-المصدر نفسه، ص 259.
[21]- المصدر نفسه، ص 299.
[22]- ينظر، عبد السلام الترمانيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1998، ص ص 129، 130.
[23]-ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ص 212، 213.

[24]- المصدر نفسه، ص 307.
[25]- المصدر نفسه، ص ص 115، 117.
[26]- المصدر نفسه، ص ص 206، 207.
[27]- المصدر نفسه، ص148.

-قائمة المصادر والمراجع :

1- ابن جبير محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت.
2- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر ، بيروت، لبنان، د.ط، 1994.
3- انجيل بطرس، الرحلات في الأدب الانجليزي، مجلة الهلال، مصر، العدد07، 1975.
4- حسيني محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1983.
5- الزبيدي، تاج لعروس، المحقق مجموعة من المحققين، دار الهداية، الرياض، د.ط، 2010.
6- سيد حامد النساج، منشورات كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب، القاهرة، مصر ، د.ط، د.ت.
7- عبد السلام الترمانيني، الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، 1998.
8- عمر قينة، في الأدب الجزائري الحديث، تأريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 1995.
9- عيسى بخيتي، جماليات المشهد في الأدب الجزائري الحديث، مذكرة ماجستير، جامعة تلمسان، إشراف محمد مرتاض، 2011.
10- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان،بيروت،ط1، 1994.
11- محمد مرتاض وتار، توظيف الرواية في التراث العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا د.ط، 2002.
12- ناصر الدين سعيدوني، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999.
13- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1995.
14- نجيب مليكة، المرأة في الرحلة السفارية المغربية خلال القرنين18و19م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع والإعلان، أبوظبي، د.ط، 2014م.
15- نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، وزارة الثقافة، ط1، 2008.